بسم الله الرحمن الرحيم

والصلاة والسلام على سيدنا محمد النبي الخاتم، وعلى آله وصحبه أجمعين

صاحب السمو الملكي الأمير غازي بن محمد، كبير مستشاري جلالة الملك للشؤون الدينية والثقافية، والمبعوث الشخصي لجلالته، ورئيس مجلس أمناء مؤسسة آل البيت الملكية للفكر الإسلامي، حفظه الله،

أصحاب المعالي والسماحة والفضيلة،

أيها الحضور الكريم، كلٌّ باسمه وجميل وسمه،

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته،

يطيب لي، بادئَ ذي بَدْءٍ، أن أنقل إلى جلالة الملك عبد الله الثاني ابن الحسين، ملك المملكة الأردنية الهاشمية، حفظه الله، عاطر تحيات أخيه صاحب السمو الشيخ محمد بن زايد آل نهيان، رئيس دولة الإمارات العربية المتحدة، حفظه الله، وصادق تمنيات سموه لجلالته بموفور الصحة والعافية، وللمملكة الأردنية الهاشمية الشقيقة بمزيد من الأمن والاستقرار والازدهار.

وتأتي هذه التحيات مقرونةً بأصدق مشاعر الأخوّة والتضامن، وبوقوف دولة الإمارات العربية المتحدة الثابت إلى جانب المملكة الأردنية الهاشمية الشقيقة، ملكًا وحكومةً وشعبًا، في السراء والضراء، صونًا لسيادتها وأمنها واستقرارها؛ فأمن الأردن من أمن الإمارات، واستقراره من استقرارها.

وأتقدم بجزيل الشكر إلى مؤسسة آل البيت الملكية للفكر الإسلامي بقيادة صاحب السمو الملكي الأمير غازي بن محمد، حفظه الله، على عقد هذا المؤتمر المهم، وعلى ما تنهض به، في ظل الرعاية الهاشمية الكريمة، من خدمة للفكر الإسلامي، وجمع للعلماء، وإحياء لمنهج الاعتدال والحكمة.

وفي هذا المقام، لا يفوتني أن أنوّه بمبادرة «كلمة سواء بيننا وبينكم»، التي كان لسموكم فضلُ إطلاقها؛ فقد مثّلت نقلةً نوعيةً في مسار الحوار بين أتباع الأديان، لا في صيغته وحدها، بل في مضمونه أيضًا؛ إذ جسّدت معادلةً دقيقةً تجمع بين الإيمان بالحق الواحد واحترام الآخر المختلف: حصريةٌ في الاعتقاد، وتعدديةٌ في التعايش. وكان لـ«كلمة سواء» قصبُ السبق في إبراز هذه المعادلة وتجسيدها في سياق الحوار المعاصر، ففتحت أفقًا جديدًا للحوار بالتي هي أحسن، على أساس من التعارف والاحترام المتبادل.

وبهذه النقلة غدا الطرف الإسلامي شريكًا مبادرًا، يستمدّ منطلقات الحوار وقيمه من معين الوحي وميراث الحضارة الإسلامية، ويقدّمها إلى العالم بلغة إنسانية جامعة.

وكان لي شرف التوقيع على «كلمة سواء». ثم يسّر الله لنا، على هذا النهج، أن نسهم، من خلال منتدى أبوظبي للسلم، في بلورة «إعلان مراكش» المستلهم من صحيفة المدينة، و«ميثاق حلف الفضول الجديد»، وغيرهما من المبادرات المنبثقة من تراثنا، بما تحمله من أطر أخلاقية سامية وحِكَم إنسانية رحبة، تلقّاها شركاء الحوار في الشرق والغرب بالتقدير والقبول. وهو نهجٌ نلتزمه في المنتدى، ونقدّر لسموكم ريادتكم فيه، ونواصل العمل على ترسيخ مقاصده وتوسيع آفاقه.

صاحب السمو،

أصحاب المعالي والسماحة والفضيلة،

إن عنوان هذا المؤتمر: «أولويات الأمة في الخمس والعشرين سنة القادمة»، عنوانٌ طموحٌ واسعُ الأفق، يضع الحاضر أمام مسؤوليته تجاه المستقبل.

وحين يكون الحديث عن «الأمة» وأولوياتها، يحسن استحضار سعة هذا اللفظ في التراث الإسلامي؛ فالأمة، كما يقول الراغب الأصفهاني، «كل جماعة يجمعهم أمرٌ ما؛ إمّا دينٌ واحد، أو زمانٌ واحد، أو مكانٌ واحد». وعلى هذا، تتعدد دوائر الاجتماع بتعدد الأمر الجامع، من غير أن تتدافع أو تطرد إحداها الأخرى. فالمسلم في سنغافورة، مثلًا، تجمعه بالمسلمين جامعة الدين، وبسائر مواطنيه جامعة الوطن، وبأهل عصره جامعة الزمان؛ وكذلك شأن المسلم في بوركينا فاسو، بل شأن المسلم في أي بقعة من الأرض؛ إذ تجمعه بغيره، في آنٍ واحد، روابطُ شتّى، منها الدينُ والوطنُ والزمانُ واللغةُ؛ ولكلِّ دائرةٍ من هذه الدوائرِ مقتضياتُها وحقوقُها وواجباتُها وأولوياتُها.

وقد ميّز العلماء، في إطلاق «الأمة المحمدية»، بين أمة الدعوة وأمة الإجابة. فأمة الدعوة تعمّ الثقلين: الإنس والجن، فتندرج فيها العائلة الإنسانية بأسرها؛ إذ بُعث إليهم النبي صلى الله عليه وسلم رحمةً للعالمين. وأما أمة الإجابة فهم الذين آمنوا به صلى الله عليه وسلم وصدّقوه واتّبعوه.

وفي الواقع المعاصر، تنتظم المجتمعات الإنسانية في دول وطنية ذات سيادة؛ فالدولة الوطنية الحديثة، بكامل شرعيتها ومشروعيتها، هي الوعاء الحافظ لأمن المجتمعات والمحقق لمصالحها. ولكل دولة أولوياتها التي تتشكّل في ضوء مصالح شعبها، ومواردها وظروفها، وإرثها التاريخي، وسياقها المعاصر.

ومن ثم، تمثّل الأمة في هذا السياق أفقًا جامعًا للتضامن والتعاون والتكامل بين دولها ومجتمعاتها؛ ويقوم الحديث عن أولوياتها على احترام الخصوصيات الوطنية، واستبصار المقاصد الكبرى، وتحديد التحديات المشتركة، وتوسيع مجالات التعاون التي تتكامل فيها المصالح والقدرات، بما يصون سيادة الدول ويعزّز استقرارها.

ولا يتسع هذا المقام لاستقصاء الأولويات، وإنما المقصود الوقوف عند أولوية مشتركة وحاضنة لما سواها، وهي حفظ السلم وترسيخه؛ فالسلم يبدأ من استقرار الدول، ويتسع بالتعاون بينها، وعلى بساطه تُبنى النهضة وتتحقق سائر الأولويات.

إن لكل وقت واجبًا يتقدّم على غيره، تفرضه ضرورات الواقع، وتستدعيه مصالح المجتمعات، ويتعيّن على أهل الحُكم والحِكمة القيام به. وحين تضطرب الأحوال، وتتوالى الملمّات والمدلهمات، وتتزاحم الفتن حتى يلتبس وجه الصواب، تشتد الحاجة إلى استبانة ذلك الواجب.

وإن كان لمثلي أن يتقدّم بين أيديكم بنصيحة — وأنتم القادة الحكماء والعلماء الأجلاء — فإن خلاصة واجب الوقت كلمات جامعة:

> في أوقات الأزمات، يتأكّد التزامُ الطاعةِ والانضباطِ، واجتنابُ التنازعِ والشقاقِ.

والمقصود بالطاعة والانضباط لزومُ ما يحفظ نظام المجتمع واستقراره، وباجتناب التنازع والشقاق صونُ وحدته ووقايتُه من الفرقة والفتنة، بل من الفناء والدمار.

وفي السيرة النبوية شاهدان متقابلان، جعلهما الله لنا عبرةً وهدايةً: تجلّت في أحدهما ذروة الامتثال، وسُجّلت في الآخر عاقبة التنازع ومخالفة الأمر. وفي سيرته صلى الله عليه وسلم أسوةٌ باقيةٌ على تعاقب الأزمان، كما قال سبحانه: ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ﴾.

أما الشاهد الأول، فهو درس الحديبية، فقد خرج المسلمون يريدون العمرة، فمنعتهم قريش من دخول مكة، وطال التفاوض واشتد الموقف، ولمّا شاع خبر مقتل عثمان بن عفان رضي الله عنه، بايع الصحابة رسول الله صلى الله عليه وسلم بيعة الرضوان. ثم انعقد الصلح، فأمرهم رسول الله صلى الله عليه وسلم أن ينحروا هديهم، ويحلقوا رؤوسهم، ويتحلّلوا من إحرامهم، ويرجعوا عامهم ذلك من غير أن يدخلوا مكة. وشقّ ذلك عليهم؛ إذ بدا لهم، في أول الأمر، على غير ما كانوا يرجون؛ ثم آل الأمر إلى الطاعة والامتثال.

وفي الحالين معاً تجلّى كمال امتثالهم: امتثالٌ عند الشدة، حين بايعوا تحت الشجرة على الثبات والقتال؛ وامتثالٌ عند الصلح، حين تحلّلوا من إحرامهم وقبلوا الرجوع، على ما وجدوا في ذلك من مشقة. فكانت طاعةً في مقام الإقدام، وطاعةً في مقام الإحجام؛ وفي كلتيهما صدقٌ في الاتباع وحفظٌ لوحدة الصف.

وما بدا في ظاهر الحال رجوعًا سمّاه الله فتحًا مبينًا، فقال سبحانه: ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُبِينًا﴾. ثم أبدت الأيام ما وراء ذلك الصلح من حقن الدماء، واتساع الدعوة، والتهيئة لفتح مكة.

ولئن كشفت الحديبية ثمرة الامتثال ووحدة الصف وفقه المآلات، فلقد كشفت أُحد كلفة التنازع ومخالفة الأمر.

فقد أقام النبي صلى الله عليه وسلم الرماة في موضعهم، وأمرهم أمرًا صريحًا فقال:

> «إن رأيتمونا تَخْطَفُنا الطيرُ، فلا تبرحوا مكانكم هذا حتى أرسل إليكم».

فلما لاح النصر، وتَعَجَّلَ بعضُ الرماةِ الغنيمةَ، وقع التنازع، وخولف الأمر، وتبدّل وجه المعركة. وجاء البيان الإلهي يسجّل الدرس:

﴿حَتَّىٰ إِذَا فَشِلْتُمْ وَتَنَازَعْتُمْ فِي الْأَمْرِ وَعَصَيْتُمْ مِنْ بَعْدِ مَا أَرَاكُمْ مَا تُحِبُّونَ﴾.

ومع بيان موضع العبرة، جاء العفو الإلهي: ﴿وَلَقَدْ عَفَا عَنْكُمْ﴾؛ فاقترن التحذير من عاقبة الخطأ بشمول عفو الله وفضله للصحابة الكرام.

وتلك دروس لا تُنسى، وعِبَر لا تَبلى، وحِكَم لا يمحوها تقادم الزمن؛ خلّدها الوحي لتبقى هدايةً في أوقات الرخاء والشدة.

إن الأمة اليوم، بدولها ومجتمعاتها، أحوج ما تكون إلى فقه يجمع ولا يفرق، وإلى كلمة تصلح ولا تفسد، وإلى حكمة تطفئ الحريق بدلًا من أن تزيده اشتعالًا؛ أحوج ما تكون إلى استحضار درس الحديبية في الامتثال وفقه المآلات، ودرس أُحد في خطورة التنازع ومخالفة الأمر.

ومع جسامة التحديات، يبقى حسنُ الرجاء في الله باعثًا على العمل؛ فهو طاقةٌ روحيةٌ تحرّك الإرادة، ومنهجٌ عمليٌّ يأخذ بالأسباب، ويتجسّد في مبادرات وسياسات ومؤسسات تتكامل فيها رؤية القادة، وحكمة العلماء، وهِمّة الشباب. وما في دول الأمة ومجتمعاتها من رصيد الإيمان، وطاقات الإنسان، وتراكم العلم والخبرة، يبعث على الثقة بقدرتها، بعون الله، على أن تجعل من المستقبل مرحلةً يرسخ فيها السلم، ويزدهر العمران، وتتسع أسباب الخير، وتُصان كرامة الإنسان.

نسأل الله سبحانه وتعالى أن يؤلف بين القلوب، ويصلح ذات البين، ويحقن الدماء، ويحفظ على المجتمعات دينها وأمنها ووحدتها؛ وأن يحفظ هذا البلد

الكريم المضياف، وأن ينشر رحمته وسلامه على الإنسانية جمعاء، إنه ولي ذلك والقادر عليه.

والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته.